« العدوى » بين الرمز والاشارة

(قراءة في رواية وليد ابو بكر)

الميلودي شغموم

- ١ -

في رواية «العدوى»* لوليد أبو بكر نوعان من العدوى : عدوى سلبية وأخرى ايجابية ، اقصد عدوى بالمعنى الخاص ، وهي العدوى ـ المرض ، وعدوى بالمعنى العام وهي العدوى التي ينشرها « نبيه » بصفة خاصة والتي تجسدها فلسفة « أمل » في العلاج . العدوى الاولى هي التي تقود شخصيات الرواية الى المستشفى سواء بفكر تفاؤلي أو بفكر تشاؤمي ، والعدوى الثانية هي التي ينشرها المستشفى ، وكل المستشفى متجسد في شخص « أملّ » ، ليعيدهم بواسطتها الى الحياة لكي يبدأوا من جديد . غير أننا اذا توخينا دقة أكبر يمكن أن نقسم كل نوع من هذين الصنفين الى نوعين اضافيين يمكن تسميتهما بالعدوى ـ المراحل في مقابل النوعين الاولين اللذين يمكن تسميتهما بالعدوى ـ الحالات . صحيح أن معنى العدوى في الحالة الاولى غير مشخص وغير محدد تحديدا دقيقا من الناحية الطبية ، رغم أن الاعراض القليلة التي يذكرها الكاتب تشير الى مرض السل . لكن هذه المسألة ليست أساسية في رواية العدوى ، فنحن بامكاننا أن نتصور أي مرض اخر يأتي نتيجة استنزاف داخلي ، سواء كان هذا المرض جسديا أو نفسيا أو جسديا ـ نفسيا . وذلك لان طبيعة المرض غير ذات أهمية كبيرة في الرواية ، ولن يغير من فكرة الرواية ان نتصور أن الامر يتعلق بملنخوليا بدل سل ، مثلا ، والسبب في ذلك أن العدوى رواية تقبل التأويل على مستويين : مستوى دلالي ومستوى رمزي ، وهذا من غير أن تفقد قيمتها الفنية الاساسية وقيمتها التواصلية في كلتا الحالتين . انها بهذا تذكرنا ببعض الروايات العالمية ، مع ما في المقارنة من نسبة ، مثل رواية « الطاعون » لالبير كامو ، بل وبروايات عربية مثل رواية « حين تركنا الجسر » لعبد الرحمن منيف ، هذا النوع من الروايات الذي يسمح دائما بنوعين من التأويل من غير أن يفقد قيمته . فبامكاننا أن نتعاملّ مع الطاعون كطاعون حقيقي بالغاء قيمته الرمزية ، ولكنا نستطيع أيضا أن نتعامل معه كرمز لشيء اخر كالحرب أو النازية أو الصهيونية ، اي نستطيع أن نسقط عليه الرمز الذي نشاء وحسبما تقتضيه اهتماماتنا وهواجسنا وما يستحوذ علينا من أفكار ووقائع مع احترام بنية النص . وهذا من غير أن تفقد رواية « الطاعون » قيمتها كرواية ذات أبعاد انسانية عميقة ، بل انها تغتني أكثر بهذه الطريقة اذ تصبح عملا قابلا لعدة تأويلات في اطار أبعادها الانسانية . كذلك الامر بالنسبة لرواية وليد أبو بكر ، يمكن أن نعتبرها تجسيدا لمرض بالمعنى الطبي وتصويرا لصراع الانسان ضد هذا المرض بكل ما يقتضيه هذا الصراع من أبعاد انسانية ، ويمكن أيضا اعتبارها مجرد رمز لاي عدو اخر ، سواء كان العدو داخليا أو خارجيا . واذا كانت تلك القابلية لتعدد التأويلات النابعة من طبيعة الرمز وهي ما يجعل مثل هذه الاعمال أعمالا غنية ، وبالتالي ناجحة ، فان أهم عناصر نجاحها يظل مع ذلك في انسانيتها ، في ارتباطها بالانسان بمعناه المشخص وليس بمعناه الميتافيزيقي . ولا شك أن مقارنة في هذا الاتجاه بين

* منشورات دار الاداب ، بيروت ١٩٧٩

رواية العدوى والطاعون مثلا وبين رواية « حين تركنا الجسر » و « الشيخ والبحر » ستكون مفيدة من عدة نواح ، على الاقل من حيث علاقة هذه الروايات بنماذج من الروايات العالمية . لكني لا أقصد مع ذلك أن هناك علاقة من حيث البناء والشخصيات والاحداث بين رواية العدوى ورواية الطاعون ، بصراحة: ليست العدوى نسخة عربية أو معربة للطاعون رغم وجود مثل هذا الاحتمال بالنسبة لروايات عربية أخرى . أقصد فقط أنها ، مثل الطاعون ، قابلة للتفسير على مستويين وانها مثل الطاعون ، أو أية رواية مماثلة ، قابلة لاحتواء عدة رموز على المستوى الثاني ، وان هذا بالضبط ما يجعل منها رواية غنية ، رواية تفيض انسانية ، تفيض تضامنا ومحبة وحضورا بشريا وان كانت تختلف في هذا عن رواية الطاعون . لان العدو في الطاعون خارجي ولان العدو في العدوى خارجي و « داخلي » يعود الى الداخل أكثر مما يعود الى الخارج . وهذا أيضا ما يجعل شكل التضامن الانساني مختلفا رغم أنه واحد في جوهره ، اذ أن صراع الانسان ضد العدو دائما واحدا مهما اختلفت أشكاله وظروفه ووسائله .

بعبارة اخرى : تريد العدوى أن تقول ان العدو لا يمكن أن يسيطر علينا ، لا يمكن أن يهزمنا ويكسرنا الا حين نكون مهزومين من الداخل ، حين يجد الارضية الصالحة ، والجسد المنهك كما تقول القاعدة الطبية . غير ان انتصار العدو ليس انتصارا نهائيا ، ليس كسبا لحرب انه مجرد كسب لجولة. وقد يكسب العدو جولات متعددة كما يحدث مع بعض المرضى الذين لم يقووا أنفسهم بما فيه الكفاية فيتصورون انهم على أبواب النصر ، ولكنهم لا يلبثون أن يعودوا الى وضعهم القديم ، وضع الهزيمة. انتصار العدو اذن ليس انتصارا مطلقا ، وبامكاننا دائما أن نهزمه ونمحو آثار ما ألحقه بنا من هزائم مؤقتة . ولكن الانتصار بهذا الشكل ، الانتصار النهائي على العدو ، لا يمكن أن يتم الا بتوفر شرطين أساسيين : الامل (الذي يبدأ بالاعتراف الصادق بخسران الجولة وبالرغبة الحقيقية في كسب المعركة ضده) أو التفاؤل (الذي لا يمكن أن يوجد بلا أمل ولا يمكن أن يوجد الامل بدونه ، التفاؤل الذي يبدأ بالثقة في النفس وفي الاخرين الذين نعرف أنهم يريدون حقا مساعدتنا وليس ربطنا الى وضع الهزيمة) ثم الالتزام الصارم بشروط العلاج الموصل الى كسب المعركة ضد العدو .

واضح من كل ما سبق ان العدوى يمكن تأويلها كرواية تعالج الصراع العربي ـ الاسرائيلي وان كل عناصرها قابلة للتأويل على هذا الاساس . ولكن بما أن الصراع العربي ـ الاسرائيلي جزء من الصراع بين قوى التحرر والامبريالية في العالم ، فان من الممكن أيضا تأويلها على هذا الاساس . لكن هذه الرمزية قد توصلنا الى نقيضه ، فبامكان أي مثالي أن يقول ان العدوى تعالج مشكلة الخير والشر ، وبامكان رجل دين أن يقول أنها تعالج صراع الملائكة ضد الشيطان ، وبامكان أي شخص أن يسقط عليها التأويل الذي يريد في هذه الحالة . بعبارة أخرى : هذه حدود وأخطار تأويل عمل كهذا على المستوى الثاني، يمكن أن تحمل أقدس القضايا كما يمكن أن تحمل أخس القضايا وأشدها خواء .

لكل اختيار طبعا حدود . واختيار أن يكون العمل قابلا لعدة تأويلات له ايجابياته وسلبياته التي تفرضها طبيعة العمل وبنيته . وأقل السلبيات أن يفلت زمام الرواية من يد الكاتب ، أن يضيع منه ما أراد أن يقوله وسط التأويلات الممكنة اذا هو لم يعرف كيف يتحكم في توجيه التأويل . صحيح أن كل الاعمال الادبية مهددة بمثل هذا . غير أن خطره بالنسبة للاعمال التي تحتوي على القدر الضروري من التوجيه التأويلي يظل أقل . اذن فالاعمال التي تهدف الى أن تفسر على عدة أبعاد تحمل في ذاتها من عوامل نجاحها بعدما تحمل من عوامل السقوط ، وأكثر أنواع السقوط رواجا ما يمكن أن يركزه أولئك النقاد المغرمون بالمغامرات التأويلية . وهذا مع الاسف ما يمكن أن تكون ضحيته رواية مثل « العدوى » لانها لم تكتمل فيها عناصر التوجيه التأويلي . وتفاديا للسقوط بالرواية في هذا التيه ورغبة في الحفاظ على عناصر الفهم التي تمدنا بها ، أعود الى المستوى الاول من التفسير .

ـ ٢ ـ

ولكني أريد أن أشير قبل ذلك الى نقطة تتعلق بشكل الرواية . فهذه المسألة نسميها عادة بعلاقة الشكل بالمضمون قد تكون من بين المسائل الامامية التي ما زال النقد العربي لم يوضحها التوضيح الكافي . اننا جميعا نتحدث عن العلاقة الجدلية بين الشكل والمضمون ، ولكن ما طبيعة تلك العلاقة الجدلية بالضبط ، وما هي محدداتها ؟ ان بعض الكلمات تصير في استعمالنا عامية ، عامة جدا ، بل غامضة . ولعل من مظاهر هذه العلاقة أن المضمون الجيد يحتاج الى شكل ملائم ، ان البحث عن مضامين جديدة يتطلب البحث عن أشكال جديدة لصياغتها وأنا في كل هذا لا أرى أية علاقة جدلية ، أجد أن مفهوم الجدلية لا معنى له بهذا الشكل ، قد أفرغ من معناه العميق .

يقول سارتر : « كل تقنية روائية تحيل الى ميتافزيقا » . ونعرف ان كل ميتافزيقا تقوم على مقدمات أو أسس يحتل ضمنها الزمان دائما مكانة خاصة . وبما أن كل ميتافزيقا تضم مثل هذا التصور للزمان فانه سيكون من المفيد ولا شك الا تغفل أية دراسة نقدية تريد أن تكون متكاملة جانب الزمان (والمكان طبعا) لا

باعتبارهما اطارين للعمل الادبي كما هو الامر بالنسبة للتصور الكلاسيكي . ولكن أيضا ؛ وقبل كل شيء ، باعتبارهما من مكوناته الاساسية سواء تعلق الامر بعمل روائي كلاسيكي أو عمل أدبي حديث (الرواية الحديثة) حيث يتدخل الزمان « كشخصية » بنفس معنى « الشخصيات » في الرواية الحديثة ، وحيث يحل عادة تصور مغاير للزمان التتابعي السائد في الرواية الكلاسيكية . أي يحل زمان لا يمكن فصله عن شكل الرواية ولا عن مضمونها . وبالمناسبة فان رواية «العدوى» لم تتعامل مع الشكل كما نفهمه عادة ، الشكل ـ الاطار ؛ بطريقة جريئة ، كما كان يفترض ذلك موضوعها ، بل انه شكل عرفته بعض الروايات العربية السابقة عليها وخاصة « ميرامار » نجيب محفوظ . وذلك رغم التصرف الخاص الذي يطبع هذا الاطار العام ، ولكن ، الشكل ـ الاطار ؛ الشكل ـ طريقة الحكاية الجاهزة ، هل هذا هو الشكل ؟ هل يمكن اختزال الشكل الى هذا الشكل ؟ أتصور أن الشكل عبارة عن بنية معقدة من القيم الجمالية والفكرية واللغوية والانفعالية التي ليست جديدة تماما ودائما ولكنها لا قيمة لها الا داخل ذلك البنيان ولا قيمة لذلك البنيان الا بواسطتها . غير أن لهذا البنيان وجهين : نسق علائقي أو منظومة صورية نسميها الشكل ونسق مفاهيمي معنوي نسميه المضمون بحيث تصبح العلاقة بين الشكل والمضمون كالعلاقة بين صورة مزهرية مثلا والمادة التي صنعت منها، بل كالعلاقة بين الفكر والامتداد عند الفيلسوف سبينوزا ، أو بين الله والموجودات عند محي الدين بن عربي : ما تراه من الداخل فكرا (مضمونا مركبا في الرواية) ، ترى دائما الشيء نفسه من « الزاويتين » لان هاتين « الزاويتين » مندمجتان . هذا ما أفهمه من وجود علاقة جدلية بين الشكل والمضمون . ومن هنا يصير الزمان في الرواية اكثر من مجرد اطار ، يصير عنصرا بنائيا مركبا من أهم عناصر الرواية . ولان الزمن بهذا المعنى عادة ليس كميا (لانه ليس مجرد اطار) وانما هو كيفي لانه الزمان المعاش ، زمن برغسون وانشتاين ، وليس زمن نيوتن ، فان زمن كل رواية زمن فريد ، زمن متميز وخاص ، زمن يمكن اعتباره معيارا لقيمة الرواية .

ان « العدوى » تبدأ لاهثة ، كل الفصل الاول لاهث بصفة عامة ، وكذلك الفصل الثاني ، وذلك وفقا لمضمون هذين الفصلين ، بل وفقا لجوهر الزمن العربي الذي يحتضن أحداث الرواية . تبدأ رواية « العدوى » لاهثة كباطن الزمن العربي الذي يضمنا جميعا كسير الحياة العربية ، ولكن زمنها لا يلبث أن يصير متدفقا ، حين تكتشف أهم ألغاز الرواية ، منذ الفصل الثاني ، أعني منذ نهايته وبداية الفصل الثالث . بعد هذا تصير الرواية هادئة . وذلك منذ تركيز فلسفة التفاؤل بالقدوة من طرف « نبيه » ، منذ تدخل انسانية « أمل » بشكل فعال ومنذ تدخل فلسفة التشاؤم عند « سليم » ، منذ تدخل حكمة « نبيه » ورزانة « رؤوف » ومحبة أخته « بشرى ». بطبيعة الحال ؛ لا يتم تطور الزمن بهذا الشكل المنتظم لان الرواية هي الفصل الاول وليست الفصول الاخرى الا تعميقا يقوم به أشخاصها كل من زاويته الخاصة ؛ القصة نفسها يحكيها خمسة أشخاص عاشوها بهذا الشكل أو ذاك جماعيا . ولا يتطور بذلك الشكل دائما وانما يتداخل . غير أنه على العموم يصير هادئا منذ الفصل الثالث ، يصير متأنيا يجمع بين الفكر والعاطفة ، بين الاعتقاد والمنطق ، بين برودة اليأس وحرارة الامل . يصير الزمن مركبا ، جماعيا بعد أن كان فرديا وأنانيا جدا في الفصل الاول والفصل الثاني. وذلك راجع الى تدخل عناصر انسانية قوية ، تدخل المحبة التي تعرف كيف تنتظر ، الكفاح المتأني ، التعاون لضمان شرط انساني أكثر قدرة على المساعدة على تقبل العلاج ثم التغلب على العدو .

هذه اذن هي العناصر العامة التي ستتشابك لتعطي زمن الرواية ، أو هذا هو الزمن الذي يتشابك ليعطي العناصر العامة للرواية ، لاعطاء القيمة الانسانية للرواية. وكل قيمة الرواية تنطلق من الصراع والامل ، من جوها الانساني . وطبيعي ان تستغل هنا كل مظاهر الزمن : التأني والتعاقب ، القفز على الحاضر للرجوع الى الماضي أو استشراف لافاق المستقبل بشكل واقعي جدا ، الخ ... الفرد وحده ، الواحد وحده ، غير قادر على التغلب على العدو ، لا بد من التعاون اذن ، لا بد من جماعة ، ولا بد من قدوة لهذه الجماعة ، أو قدوة تخلقها تلك الجماعة. غير أن الفرد مع ذلك مسؤول وحده عن مصيره . النتيجة ؟ في خاتمة الرواية : « لعلنا تعلمنا أن نبدأ من جديد » ، يقول «سليم» أكبر متشائمي شخصيات الرواية ولكن من ؟ كلهم الا سلوى وزميل نبيه القديم في الغرفة. ان هذا الزمن ، هذا الجو الانساني بكل مظاهره قد يكون مفتاح الرواية : أن نعيد بناء الحياة من الجديد ، ولكن على أسس مغايرة لتلك الاسس القديمة ، لان هذه هي التي قادتنا الى الهزيمة ، تلك الفكرة العامة في الرواية . فكيف تمت بلورتها ؟ يعيدنا هذا السؤال الى المستوى الاول لتفسير الرواية .

ـ ٣ ـ

تبدأ الرواية بأمر الطبيب : « ـ أنت مرهق ، وعليك أن تستريح وأن تعيد النظر في نظام حياتك .

ـ لكني لست مرهقا ، ولدي من الطاقة ما يجعلني لا أتوقف ...

ـ هذه الطاقة الموزعة دون نظام هي سبب مشكلتك » (ص ٥).

وهي تقريبا بداية نهاية المرحلة الثانية من الحالة الاولى من العدوى أو المرض . لكننا لا نملك الا اشارات قليلة لوصف المرض وصفا طبيا محضا وان كانت تكفي

لاستنتاج أن الامر يتعلق بمرض السل . يقول « نبيه » محاولا أن يعرف سر المرض الذي لم يعطه الطبيب المعلومات الكافية عنه بخصوص حالته : « لماذا طلبت لمراجعة الطبيب ؟ تمنيت أن افتح هذا الصدر الغامض لابحث فيه . ماذا يحمل ؟ ماذا يخفي ؟ » (ص ١١) ثم يحاول «نبيه» أن يتصور المرض على الشكل التالي : « تخيلت العدو : ربما كان على شكل فئران صغيرة تتوالد بالالاف ... ربما بالملايين ... وتقضم ... تقضم ولا تشبع . في داخلي وحدي . لماذا ...؟» (ص ١٥) . هل هو مظلوم ؟ هل ينتقم من الاخرين بنشر العدوى بينهم . داخلهم ، في كل أولئك الذين أدوا به الى هذه الحالة ، أولئك الذين كان يعطيهم الى أن استنفد ذاته وأصيب بالمرض ؟ رغم احساسه بهذه الرغبة ، بهذا الحقد الغامض في داخله ، فانه لا يجد القدرة على ذلك . يستطيع أن يفعل هذا مع « سلوى » خاصة ، لكن «سلوى» أصيبت بالمرض قبله ، كانت مريضة ولم تقل له . اذن لن يقدر على أن يكون عامل انتشار للعدوى وسط الاخرين ، سيكون عامل انتشار عدوى أخرى ، الحالة الثانية ، غير أن للحالة الاولى مرحلة أولى قبل أن تكون لها مرحلة ثانية تقوده الى المستشفى . هذه المرحلة الاولى أخطر ويصفها نبيه هكذا : « كنت محبوبا . صرت مثلا يعير به الناس أولادهم . كنت بارزا في كل شيء : أسبق أقراني في المدرسة بمراحل . لا أحد يحلم بأن يتفوق علي . في كل نشاط كنت نجما (...) كان هذا يرضي الناس فيرضيني ... أو أحس بأنه يرضيني ، من خلال ما أراه من اعجاب الناس ... » (ص ١٢) هذا هو المرض الحقيقي الذي أصيب به «نبيه» ، أن يطلب الناس منه فيعطي ، وأن يرى عطاءه يرضي الناس فيعطي أكثر ، أن يعطي لكل من يريد ، لكل من يطلب الى أن استنفد طاقته ، والناس طبعا لا يقنعون ، أو كما يقول المثل « يتعب من يعطي ولا يتعب من يأخذ » . ولعل أوضح مثال لهذا العطاء ما تلخصه علاقته مع «سلوى » : « عندما دخلت سلوى مكتبي لاول مرة ، أحسست أن الدهشة تقفز من عينيها ، كانت تريد خدمة ، كنت أنيقا كعادتي ، كانت وحيدة ، كنت لبقا كعادتي . أحسست بالامان ، أعجبني ما في عينيها ، فعلت لها ما تريد ، قالت ما أعجبني ، فعلت ما أعجبها ، لم يطل بنا الطريق ، عندما زرت منزلها لاول مرة ، وجدته كما أريد ، وكنت كما تريد . عشنا . كانت تحتاج الى حياة . وكنت أحب أن أعطي ... » (ص ١٣) وظل يعطي لسلوى ، يبدد طاقته . لكن سلوى أيضا كانت مريضة بهذا المعنى . تحمل مرضا اخر قريبا من مرض نبيه ، نسخة أخرى من نبيه ، تحمل جرثومة أن تعيش كل حياتها وبلا حدود ، هذه الجرثومة هي التي ستوصلها الى المرحلة الثانية من الحالة الاولى قبل أن يصل نبيه نفسه الى هذه المرحلة . في هذا اذن يتشابهان ، غير أنه يحب أن يعطي وهي تحب أن تأخذ . بعد هذا يجد نبيه نفسه داخل المستشفى . لم يكن من السهل أن يدخل المرحلة الاولى من الحالة الثانية ، لكنه لم يكن من الصعب أن يبدأ مع ذلك . وهكذا يبدأ .

« فوجئت : ـ الى أين ؟ ـ أتمشى في حديقة المستشفى . نظرت في ساعتها : ـ في المستشفى نظام ، وهذا وقت الراحة ـ لكني لست متعبا ـ في المستشفى نظام ... وهذا ... » ـ (ص ٢٢) أمل صارمة ، علمتها تجاربها السابقة أن تكون صارمة لينة . المرحلة الاولى من الحالة الثانية تبدأ اذن بأن يقبل المريض النظام ، أن يقبل القانون الداخلي للمستشفى على عكس أولئك الذين لم يستطيعوا أن يخضعوا له بشكل مناسب فظلوا موزعين بين التمرد والتعود والخضوع ، بين المرض والعلاج فلم يعالجوا . غير أن المستشفى ، كما قلنا ، لا يوجد فيه وجودا حقيقيا الا أمل . أمل هي في الواقع كل المستشفى كما سنرى أيضا ، هي منبع العدوى الانسانية في هذا المستشفى ، وهي أكثر المؤهلين لذلك لانها تعطي ولا تأخذ بالمعنى المادي للكلمة ، تعطي وتقنع بهذا العطاء لان كل سعادتها في هذا العطاء .

تبدأ المرحلة الاولى من العدوى الثانية بقبول العلاج وتتعزز برفض نبيه لان يكون عدوى مرضية : « العرق ينساب غزيرا . انفاسي تسمع . تضيق . لن أكون السبب لاحد . لن أكون عدوى متنقلة تغلفها ابتسامة ». لكن هذا وذاك سيقترنا ببديل يتجسد في تصميم نبيه على أن يكون نموذجا من حيث لا يدري للصراع ضد العدوى، قدوة . ولعل هذا هو المعنى الحقيقي للعدوى في الرواية. نبيه اذن يعرف سر مرضه : « حياتك كيف كانت ؟ تأكل قليلا ، تدخن كثيرا ، تسهر كثيرا ، تعمل كثيرا ، تعاشر النساء كثيرا ... أليس كذلك ؟ ـ كنت أحاول أن أعيش » (ص ٣٠) وعاش حتى استنفد طاقته ، عاش أكثر مما تحتمل ذاته . لكنه ـ وهذا أهم الان ـ يعرف سر علاجه : « الاعداء الخفيون يتواجدون في كل مكان. فهل نسكت عنهم ؟ ان هزيمتهم لا تأتي الا كما تأتي هزيمة الاعداء الظاهرين : بأن نقوي أنفسنا ... » (ص ٣٠).

مثل هذه الاشارة يشجع على قراءة الرواية على المستوى الثاني الذي أشرت اليه سابقا . غير أني أفضل أن أستمر في قراءة الرواية على المستوى الاول توخيا لمزيد من الفهم . انحاز نبيه اذن الى صف التفاؤل أو الاصل . لكن اختيار هذا الصف ـ ككل اختيار ـ لا يمكن أن يتم بدون صراع داخلي وخارجي ، فما أسهل طريق الهزيمة ! أما طريق الانتصار فهو شاق . غير أن هناك الثقة في النفس والثقة في أولئك الذين يريدون المساعدة الحق ، هناك أمل ورؤوف وبشرى ، هناك أيضا العبرة من صف المنهزمين ... عوامل كثيرة ، داخلية وخارجية، ستساهم كلها في انجاح الاختيار الانساني ، وتجعل نبيه يطمئن الى هذا الاختيار ، يقول : « مر بالخاطر تساؤل :

وماذا عن الذين يبتسمون ؟ وقبل أن أغفو ، كانت أمل تبتسم . كانت بشرى توصي . كان .. هل نمت ؛ وعلى شفتي ابتسامة ؟ » (ص ٣٥) تظل أمل ، وغيرها ، وراء هذه الابتسامة ، تظل تزرع الامل وتعيش من رؤيته يزهر على الشفاه كما يعيش أب من رؤية أولاده يكبرون أو تعيش عجوز وحيدة من تربية الازهار .

يمكن أن نقف موقتا عند هذا الحد لنتساءل عن طبيعة المشكل الذي تعالجه الرواية . ان ما مر يكفي للقول بأن العدوى تعالج على هذا المستوى مشكلة الاستنزاف الذاتي التي يتعرض لها الافراد عادة ما بين الثلاثين والعشرين اذ يقبلون على الحياة بنهم غير مراعين حدود ذواتهم فيجدون أنفسهم بعد ذلك قد استنفدوا طاقتهم بحيث لم يعد أمامهم الا اختياران : أن يستمروا في عملية الاستنزاف التي تقودهم الى الموت المبكر ، أي أن يقوموا بمراجعة لنمط حياتهم ويبدأوا من جديد . وفي الرواية نجد من يجسد الاختيار الاول (زميل نبيه القديم في الغرفة وسلوى) كما نجد من يجسد الاختيار الثاني (نبيه خاصة وسليم فيما بعد) . من هذه الزاوية تصبح « العدوى » رواية سيكولوجية ـ اجتماعية تتوخى هدفا تربويا . من الممكن طبعا عدم حصر الاستنزاف في سن تقريبية من هذا المنظور ، لان الاستنزاف قد يصيب أي شخص مثل نبيه أو سلوى أو سليم (الذي يجسد حالة أخرى من الاستنزاف) أو غيرهم من الناس . لكن الاستنزاف يبدو مرضا شائعا حوالي سن الثلاثين . ومن الممكن ، أيضا ألا ننظر الى الافراد كأفراد ، وأن نتعامل معهم كمجرد عناصر لعمل فني غايته أن يتحدث عن مرض جماعة وعن ضرورة عدوى لاصلاح هذه الجماعة ، لكننا حينئذ نعود الى المستوى الثاني من التفسير ، وهو المستوى الذي قررنا أن نقف به عند حدوده لكي لا نجعل الرواية تقول ما لا يمكن أن تقول ، أي ما لا تقدر على قوله ، ولكي ندخل عالمها من زوايا متعددة بحثا عن فهم أعمق لها واخلاصا لما تمتاز به من غنى فكري .

بداية المرحلة الثانية من «العدوى» أي بداية العدوى الحقيقية تبدأ كما سبق القول برفض نبيه أن يكون عدوى متنقلة تصيب الاخرين وتتعزز بقراره المتجلي في أن يكون عدوى من النوع الاخر بمجرد قبوله للعلاج . في التصميم الاول التزام انساني تجاه الاخرين . وفي التصميم الثاني التزام انساني تجاه الذات . لكن هذا الاخير سيتحول بسرعة الى التزام تجاه الاخرين بحيث يصير الذاتي غيريا ، وبحيث تتحول الرواية الى ملحمة للتفاؤل الانساني ، للامل ، والتزام صارم بالعمل على تحقيق هذا الامل من خلال الصراع ضد مبدأ الموت الذي صارت تحمله ذات كل واحد بعد أن حطمها المرض ، ضد ليل التشاؤم وطيف الموت الذي يهيمن على المستشفى . وهذا بالضبط بعض مما أسميته انسانية الرواية ، الانسانية المصارعة، انسانية الانسان المشخص كما يحققها من خلال مقاومته لكل قوى الموت والتشاؤم والاحباط ، الانسان الذي يكتشف ذاته باستمرار من خلال الصراع ، يبدأ باستمرار من جديد ، لانه يتجاوز ذاته عبر صراعه ضد قوى الثبات والرجوع الى الوراء . وهو ما تكتمل بدايته مع القرار الثاني الذي يتخذه نبيه ويعلنه للمتشائم سليم :

« ـ هناك قضية حسمتها مع نفسي منذ مدة ، حتى دون أن أفكر فيها : انني أفضل ما أعرفه على ما لا أعرفه ، وأفضل ما يمكن أن أعرفه على ما لا يمكن أن أعرفه .

ـ وماذا نعرف هنا ؟

ـ نعرف أن لنا بقية من عمر ، علينا أن نعيشه . قد لا يكون ما نستطيع أن نفعله كبيرا . وقد لا يساوي طموحاتنا ، لكنه أفضل مما نجهل .

نظر اليه باستغراب . وتساءل :

ـ هل لك أحد ترغب في الحياة من أجله ؟

قلت دون تردد :

ـ لي نفسي أولا » (ص ٢٧)

هذا القرار الذي يستجيب لامر غريزي يتجلى في غريزة حب البقاء يخفي وراءه أمرا مهما : نبيه لم ينهزم بعد ، ما دامت الهزيمة لم تصل الى النفس ، لم تصل الى القضاء على مبدأ الحياة ، فان الانسان بداخله لم ينهزم بعد . وهذا أهم شيء ، أهم ما يمتاز به نبيه بالنسبة لبقية المرضى . ولكن الاخرين قد انهزموا من الداخل ، انهزم فيهم الانسان ، الجانب الاساسي في الانسان : الرغبة فيه البقاء . غير أنه قد يكفي أن يوجد مثال ، أن توجد أسوة في جماعة من أمثال هؤلاء لكي يجد أفرادها مصدرا يستمدون منه الحد الادنى من الطاقة الضرورية للمحافظة على الرغبة في البقاء . حين يتوفر مثل ذلك يفرض القيام بالاجراءات الضرورية أو الممكنة من أجل البقاء . وينتج هذا العمل بدوره طاقة تظل تتجمع تدريجيا الى أن يسترجع المريض كل ما فقده ويصبح قادرا على البداية من جديد . وهكذا تنتشر العدوى بين كل النزلاء ويختم الرواية سليم ، أكبر المتشائمين بقوله : « لقد تعلمنا ... أن نبدأ من جديد » (ص ٢٠٦) .

أهم شيء اذن أن يصير الشخص قادرا على رفض الاستمرار في المرض لكي تبدأ المرحلة الاولى من العدوى . وحين يصير هكذا فانه من حيث يدري أو لا يدري يصبح عدوى ايجابية ، قدوة للاخرين يستمدون منه المثال والطاقة . عندئذ تبدأ تباشير نجاحه في هذا الاتجاه ، ويجد في «أمل» معينا من الطاقة لا ينضب . ذلك ما حدث لسليم نفسه . يقول لامل بعد اجتياز العقبات الاساسية : « كنت لا أثق الا بما أفكر فيه (...) ـ ان تفكيرك وحدك لا يغنيك . أنت تحتاج الى أن تفكر .

وتحتاج الى أن تسمع أفكار الناس . الفكرة الصحيحة لا تولد مرة واحدة . هي كالطفل ، لا يولد من فرد واحد . انها تحتاج الى تزاوج حتى تخرج سليمة » (ص ١٢٩)

الحقيقة ، الفكرة الصائبة ، بنت النقاش ، نتيجة مجهود جماعي . كذلك الامر بالنسبة للعلاج ، لا ينجح الفرد الا مع الجماعة وبالجماعة ، ولا يمكن أن يجدي معه العلاج الا حين يقر بأنه كان على خطأ وأن عليه ابتداء من لحظة دخوله الى المستشفى أن يبدأ من جديد مع الجماعة وبالجماعة . لهذا سينجح نبيه وسينجح سليم وستفشل سلوى في الخروج تماما من المرض . ما دامت سلوى لم تتخط المرحلة الاولى بتمامها فانها لن تصل أبدا بشكل كامل الى المرحلة الثانية ، ما دامت ترفض بصدق مع نفسها ومع الاخرين أن تتخلص من المرض ، وما دامت ترفض الدخول الى المستشفى والاعتراف العلني أمام « الجماعة » بمرضها ، فانها لن تصل الى مرحلة العدوى بالمعنى الثاني . وهكذا ينتهي الفصل الثاني الذي تحكيه سلوى والذي تصف فيه مرضها وقبولها الغامض بشكل ملتو من العلاج ، ينتهي هذا الفصل بقولها حين رأت نبيه يحتضن ذراع بشرى :

« تذكرت الخط المستوي . قذفته من ذاكرتي . تطلعت في عيون الناس . في عيون الرجال . كنت أبحث فيها عمن أستطيع أن أشير اليه دون تردد . أسعى اليه. أن أهتف في وجهه بجرأة وحشية : أنت الذي أريد ! » (ص ٩١) .

ترفض سلوى الصحة لنبيه ان لم تكن لتأخذها منه من جديد ، ترفض الصحة اذن للاخرين ، لذلك تظل تفتقر اليها ، ترفضها لنفسها . وهكذا تظل سلوى مريضة بالمعنى الاول للمرض ، تظل خارج دائرة العدوى ، خارج دائرة الجماعة التي قررت أن تبدأ من جديد ، أو على الاصح ، تعلمت كيف تبدأ من جديد . وهذا ما يظهر منذ نهاية الفصل الاول من خلال الحوار التالي بينها وبين نبيه حتى قبل أن يراها بعد الحاحها :

« ــ انني لا أحقد ــ أكد لي ذلك ــ كيف ؟ ــ تطلع الي ... أحسست بسخافة المطلب . ابتسمت . تطلعت. ماتت الابتسامة فجأة . كانت تكشف عن صدرها . كانت تقول بغباء :

ــ ألا تحبه ؟

... وقدت السيارة » (ص ٥٩)

والحقيقة أنها حاولت ، ولكن جرثومتها كانت أقوى ، ولم يشجعها نبيه لانه قرر أن يبدأ من جديد ، تقول : لو قلت لمن عرفني في الفترة السابقة أنني أتقشف بنفسي ، بطاقتي ، لما صدق . لو عرف نبيه أنني لم أعد أدخن . لم أعد أشرب . لم أعد أرقص . لم أعد أسهر . لم أعد أعرف أحدا ... لو عرف ... ترى هل يمكن أن يوصل طريقي الجديد الى طريقه الجديد ؟» (ص ٨٦) سيظل الخطان متوازيين . ورغم أنها ستقبل العلاج بشكل صعب وستصل الى بداية الطريق ، أي بداية نهاية المرض فانها بمجرد ما تصل الى هذا الطور ، وهو غير كاف ، تحتفل بالمناسبة من غير أن تعلن السبب الحقيقي لكي لا يعرف الناس أنها كانت مريضة ، أنها مريضة ، في هذا الاحتفال تعود الى ممارسة حياتها بالشكل القديم نفسه . تقول أمل تصفها أثناء الحفل: «كانت سلوى مثل الجائع وقد وجد مأدبة . كانت جائعة للحياة . تحاول أن تلتهمها مرة واحدة (...) شربت كثيرا . قفزت كثيرا رقصت كثيرا . تصورتها تطير خارج جسمها (...) كانت سلوى تنقل نفسها من يد الى يد (...) امتدت الحفلة الى الصباح . اختلط كل شيء في آخرها » (ص ١٠٥) . سلوى لم تبدأ اذن من جديد . لم تتعلم كيف تبدأ من جديد . ما زالت نموذج الفشل لانها لا تجد الطاقة الضرورية للبداية من جديد داخلها ، لم تعرف كيف تأخذها من الاخرين وتحافظ عليها ، ما زالت تبددها بلا حساب . ولكن سلوى ليست النموذج الوحيد للفشل ، فهناك أيضا الزميل القديم لنبيه في الغرفة . هذا الرجل على عكس الجميع ، لم يبدأ قط ، لم يستطع ان يخضع لنظام العلاج ، أن يقبل العلاج ، أي لم يستطع الدخول في المرحلة الاولى من العدوى فظل فشلا ثانيا بالنسبة لنفسه وبالنسبة لامل . انه يختلف عن كل الاخرين لانه ظل فريسة للمرض ، عاجزا أمام المرض ، فكان مصيره مختلفا أيضا : الموت . لكن هذين الفشلين، سلوى والرجل الذي كان أول زميل لنبيه في الغرفة ، سيدفعان أمل الى استخلاص دروس جديدة لاغناء تجربتها مع المرضى وتعديل طريقة التأثير فيهم . وكان أهم تعويض لهذا الفشل في تجربتها مع نبيه الذي اعتبرته منذ البداية « تجربة مصيرية » ، فلم يخب أملها فيه ، لم يخب أمل المستشفى ، فأمل في الواقع ، كما رأينا ، هي كل هذا المستشفى ، وليس وجود الطبيب الا وجودا يكاد يكون شكليا . كل العمل الحقيقي تقوم به أمل ، انها مثل الملاكم الكبير الذي تقاعد فأراد أن يصير مدربا ليجعل من كل تلاميذه ملاكمين كبارا مثله ، بل هي مثل القديس الذي انتصر على الشر في داخله فقرر أن يجعل من كل زواره أبطالا في محاربة الشر ، فاذا نجح أحدهم اعتبر النجاح نجاحه واذا فشل اعتبر الفشل فشله . ولنقل أنها حاربت فانتصرت فأرادت أن تجعل من نفسها معلمة تربي في الناس ــ المرضى فن المجابهة والانتصار : « الذي ينظر في وجهي لا يستطيع أن يصدق أنني كنت مريضة . لكن هذا تاريخ قديم ، كنت أنساه شخصيا ، وان كانت التجربة الاليمة التي عشتها قد أعطتني درسا في العناية بالمرضى .

لم يكن لي يد في مرضي ، كنت صغيرة ، في منزل فقير تسكنه عائلة كبيرة . كانت كل مصائب الفقر تعيش

في المنزل . قبلي اخوة تركوا المدرسة ، وبعدي ايضا ، لكن المرض فتح لي طريقا صغيرة لاستمر قليلا .

عندما نقلت الى المستشفى ، وجدت أن بامكاني أن أنقطع عن دراستي . بل وجدت ما يشجعني عليها . ووجدت من يساعدني . كان في المستشفى نظام . وكان فيه جو يمكن أن أدرس فيه . وكان فيه من سبقني فأخذ بيدي . ولان مرضي استمر طويلا ، فقد تخطيت المرحلة التي توقف عندها أخوتي . ولاني عايشت الناس في المستشفى طويلا ، فقد وجدت بينهم من يمد يده الي ، ولان الاتجاه الذي اخترته لا يكلف أهلي شيئا ، ولانهم لم يصدقوا أن مرضي يمكن أن ينتهي ، لم يمانعوا ...

وهكذا جعلني المرض أصبح ممرضة ... » (ص ٩٢ ـ ٩٣) .

ممارسة هذه المهنة من طرف أمل فيها اذن نوع من رد الدين ونوع من التعويض ، وفيها ايضا نوع من طلب السلطة المعنوية كما هو الشأن بالنسبة لجميع المهن عادة . غير أن كل ذلك صار عند أمل فلسفة للتمريض وفلسفة للحياة تستضيء بها في ممارستها الانسانية . فليس المستشفى مكانا لشحن المريض بالعقاقير والحقن ، لكنه قبلَ كل شيء مدرسة لاعادة التربية ، طريقة من طرق المجتمع في اصلاح الاخطاء التي يرتكبها في حق الفرد اي تلك التي يرتكبها الفرد في حق نفسه تحت ضغط المجتمع ، لذلك تختلف المستشفيات باختلاف تطور المجتمعات وقيمة الانسان فيها كما تختلف داخل المجتمع الواحد باختلاف مستوى و «قيمة» روادها . عموما يبقى المستشفى مدرسة لاعادة التربية بالمعنى الشامل لكلمة التربية . وهذه مهمة لا يمكن أن تتوفر في المستشفى الا اذا كان المشرفون عليه يملكون مثل هذا التكوين ويتلقون باستمرار اعادةتكوين من خلال ممارستهم كما هو الشأن بالنسبة لامل . امل من هذا المنظور تمثل هدفا لم يتحقق بشكله المتكامل في مجتمعات العالم الثالث بصفة عامة . غير أن تلك التربية لا تكفي وحدها اذ لا بد من تعاون من طرف المريض ، فالقاعدة الاساسية في العلاج أن يكون المريض مستعدا للعلاج وان يقبله ، أو على الاصح أن تكون لديه قابلية لهذا لان المعالج هو الذي يجب أن يخلق الرغبة في العلاج ، ومن ثمة قبول العلاج فالمفروض مبدئيا ان المريض حتى قبل الدخول الى المستشفى يكون لديه الاستعداد وان على الطبيب ، أن يخلق الرغبة الواعية وان يجعله يقبل العلاج . وكلَ فشل يتحمل مسؤوليته بعد ذلك الاطباء اذا جاءهم المريض قبل فوات الاوان . الا أن توفر مثل هذا الامر يقتضي أن يتحول كل المجتمع بشكل أو باخر الى منظمة صحية ، يقتضي على الاقل أن يتحول المستشفى الى مؤسسة انسانية بالمعنى الكامل للكلمة والا يبقى مجرد مجزرة تجري فيها عمليات على الانسان فيشحن فيها جسده بمختلف الادوية وكأنه مجرد قرد أو فار ابيض ، أن يرتفع الطب فوق المستوى الذي يجعل من أغلبية الاطباء جزارين أو باعة عقاقير . المستشفى اذن في حاجة الى مراجعة جذرية كي يصير مجال تواجد انساني . من خلال ممارسة أمل يمكن أن نعتبر هذه فكرة أساسية في رواية «العدوى» طبعا . الرواية لا تتعرض لمثل هذه المحاكمة ، وتنظر الى فشل سلوى وزميل نبيه القديم في الغرفة كفشل فردي فهل تريد أن تقول أن هذا الهدف لا يصير ممكنا الا اذا صار الانسان العربي انسانا حقيقيا ؟ من هذه الزاوية تطرح رواية «العدوى» عند قراءتها كاملة المشكلة التالية : المرض الذي تتحدث عنه مرض برجوازي محض ، أي مرض مقصور على طبقة صغيرة في العالم العربي ، تلك التي تعرف ترفا اجتماعيا بهذا الشكل أو ذاك ، هذا على ما يبدو واقع سلوى ، وهو أيضا واقع نبيه ، ويمكن أن نغامر فنقول أنه أيضا واقع سليم . ولنفرض أنه ليس مرضا برجوازيا ، فهو على الاقل مرض يمكن أن يصيب بعض فئات البرجوازية الصغرى ، ولا يمكن الشك في أن كلا من سلوى ونبيه وسليم ينتمون على الاقل الى مثل هذه الفئات . أما بقية الجماهير فلا يمكن أن تعرفه، وحتى اذا عرفته فان العلاج الكافي في معظم الاقطار العربية يظل غير ممكن بالنسبة لها . لذلك تظل خارج دائرة العدوى . صحيح أن الاستنزاف الذاتي يمكن أن تكون له عدة اشكال ، والبداية من جديد يمكن أن تكون لها عدة مظاهر ولا تختلف مع ذلك في جوهر الصراع . وعلى هذا الاساس تصبح مظاهر الاستنزاف في الرواية مجرد نموذج أو مثال قابل للتعميم . وهكذا يمكن أن نتحدث عن المظاهر الاخرى للاستنزاف : العمل المفرط واللاانساني ، القلق النفسي ، الاستلاب ، القمع ، الجوع الخ ... ولكن مثل هذا غير وارد بالنسبة لرواية «العدوى» ، فهي من هذه الناحية تكاد تكون تجريدية ، تتحرك في مناخ لا علاقة مشخصة له بالواقع العربي الفعلي اذا حذفنا منها الاسماء العربية . قد يقال طبعا : أليس للرواية مستويات يمكن تفسيرها طبقا لها وان المستوى الثاني وهو الذي يقبل دائما عدة تأويلات يتطلب بالضرورة مثل هذه الصياغة التي تكاد تكون تجريدية في علاقتها مع الواقع العربي ما دامت امكانية تعدد التأويلات تقوم بالاساس على قدر كبير من التعميم والتجريد ؟ أولا ، يجب أن نزيل سوء فهم ممكنا : ان كل الاعمال الابداعية قابلة لتأويلات متعددة ولا تختلف الا في طبيعة تلك التأويلات ، بل ان كل قراءة تأويل خاص . وبالتالي فان التعميم والتجريد وصياغة واقع غير « مشخص » لا يمكن ان تبرر تعدد التأويلات ولا يمكن أن تقود اليه بالضرورة وتعتبر كشروط له . ثانيا ، ان مثل ذلك القول سيكون مجرد مغالطة أو فهما مشوها أو مقلوبا لطبيعة الاعمال ذات القابلية لتعدد التأويلات ، فالتعبير عن العام في الفن لا يمكن ان يتم الا من خلال الخاص. ولا شك ان

في الادب قدرا كبيرا من العام رغم أن الخاص يبدو هو السائد ، ولكنه ذلك العام الذي يجعل مثلا من « بطل من هذا الزمان » لليرمنتوف عاما ، أي كما أراد له كاتبه ، معبرا عن عيوب عصره ، أو فئة من عصره . جدلية العام والخاص هذه هي ما يبدو أن رواية «العدوى» قد أخطأته . فهي كما قلنا اذا حذفت منها أسماء الشخصيات يمكن أن تجري في أي مكان ، رغم أن هذا المكان يظل محصورا في ما يمكن تسميته انتماء الطبقي الغامض لابطالها (باستثناء أمل) ونحن لسنا في حاجة الى أدب يجري أحداث شخصياته في أي مكان ، نريد أدبا عربيا زمانا ومكانا وقضية وانتماء . ليس هذا فهما كلاسيكيا لمسألتي الزمان والمكان لان بعض ما سبق يظهر عدم ورود هذا الفهم ، ولكنه اشارة الى أن هوية العدوى الوطنية والقومية غير واضحة ، وبالتالي فالخاص فيها غير واضح وعند محاولة توضيحه يظل بعيدا عن مشاكلَ الاغلبية ، المشاكل الحقيقية . لذلك جاء العام أيضا غير مقنع لانه ظل معزولا عن وسطه الحقيقي ، عن حياته . لهذا كله تظل رواية «العدوى» اذا فسرت على هذا المستوى غير مقنعة . تظل مقنعة أكثر على المستوى الثاني لانه يمكن تجاوز مثل هذه الجزئيات على هذا المستوى . وحتى على المستوى الثاني قد تكون عودة الى « الطاعون » كافية لتوضيح المسألة . غير أني نسيت أن أشير الى أن كل مقارنة تحتوي بالضرورة على قد كبير من التعسف أو الاعتباط . ومع ذلك فانه لا بد من التشديد على المسألة التالية : ان رواية « العدوى » اذا تمت قراءتها فقط على المستوى الاول تظل كرواية لم يكتبها كاتب عربي لانها خالية من كل الهموم العربية الانية والملحة . فكيف يستطيع كاتب عربي أن يتخلص من ضغط هذه الهموم التي تحاصره في كل وقت ومكان ؟ فمن الافضل أن تقرأ الرواية على المستوى الثاني مهما كانت مخاطر تلك القراءة.

هناك أيضا شيء اخر :

منطق الرواية يقتضي أن يضاف اليها فصلان اخران : الاول من وجهة نظر رؤوف والثاني من وجهة نظر الزميلَ السابق لنبيه في الغرفة كي تكتمل الرؤيا بشكل أوضح .

هل أضيف شيئا اخر ؟ ملاحظات صغيرة لا أريد ذكرها جميعا :

ـ الفصل الاول يبدو وكأنه كتب بسرعة أي اختزل جدا .

ـ كل شخصيات الرواية تكاد تتكلم لغة واحدة ولا تملك ذلك التميز اللغوي الذي يعكس تميزها السيكولوجي والفكري والاجتماعي .

ـ في الفصل الاول اعتماد كبير على العين وما يقوم مقامها بحيث تصبح عبارة عن كاميرا ويصير هذا الفصل « بصريا » والى حد كبير . لكن السرعة وتكرار الكلمات نفسها يفقدانه الكثير من فنيته ، الخ ...

وبعد . هل حاورت هذه الرواية لاجعلها تقول في هذه الصفحات ما أراد الكاتب أن تقوله في مئتين وست صفحات ؟ هل وقفت على ما لم تقله ، وما لا تريد أن تقوله ، وما لا يمكن أن تقول ، وما لا تستطيع أن تقوله؟ هل وقفت على ما نسيت أن تقوله ؟ هل قمت بهذا الاستنطاق الاساسي في كلَ نقد ؟ بل هل فهمت الرواية كما أراد الكاتب ان تفهم ؟ وهل يستطيع كاتب أن يجعل عملا يفهم كما أراد أن يفهم ؟ هل تستطيع اللغة أن تقوم بهذه الوظيفة التواصلية الدقيقة في الادب ؟ هل تستطيع اللغة أكثر من أن تخدعنا ؟ من أن تحدث في أحسن الاحوال سوء فهم مقبولا أو محتملا ؟

في الواقع ، هذه مسألة لا أعيرها كبير اهتمام ، فلم أتمسك بتلك الاسئلة لاجيب عنها بقدر ما تمسكت بها لتضيء طريقي في قراءة الرواية . وذلك لان عملية الفهم دائما موقف تفسيري ، ولان التفسير دائما تأويل حتى عندما يتعلق الامر بعالم الارقام ، ولان هذا وذاك يقتضيان دائما تفكيكا واعادة بناء فيهما معا قدر كبير من الاعتباط لانهما لا يمكن أن يتهما بغير حد أدنى من المعايير الخارجية عن ذات العمل المقروء والمسقطة عليه بشكل أو اخر من مصادر متنوعة . لهذا تكون العملية النقدية اما ثرثرة على حساب العمل المقروء واما اعادة كتابة له من جديد ، ابداعا ثانيا ، أي ابداعا من ابداع كما يكون الكلام لغة من لغة .

أتمنى ألا أكون قد قمت بثرثرة على حساب رواية « العدوى » . أما اعادة الكتابة فان مثل هذه الجولة السريعة لا يمكن أن تزعم لنفسها القدرة على القيام بها . يبقى ما قمت به قراءة ممكنة ، بل قراءات ممكنة . وان أفضل قراءة هي تلك التي يقوم بها القارىء نفسه لان النقد شرا ما يصبح وسيلة تحجب عنه أسرار العمل الفني، التي كان من الممكن ان يصل اليها وحده . القارىء اذن لا يستفيد من النقد الا بعد أن يكون قد قرأ الرواية أو القصيدة كما لا يستفيد المشاهد من حوار حول الفيلم الا بعد مشاهدته للفيلم . أما الكاتب فهو لا يستفيد من النقد الا بالقدر الذي يطرحه امامه من أسئلة ، الا بقدر ما يدفعه الى طرح الاسئلة . وأما الناقد فهو أكثر المستفيدين من عمله لانه بواسطته يتمكن من الفهم التقريبي للعمل ورده الى منظومته المرجعية الخاصة . لماذا يكتبه ؟ لانه بكتابته يفكر فيه مرتين ، مرة حين خطط له ، ومرة حين كتبه . لماذا ينشره ؟ لانه كالنصر الاصلي يظل مفتوحا ولا بد أن يكمله غيره.

الدار البيضاء ـ المغرب